

المؤتمر العالمي السادس  
لبديع الزمان سعيد النورسي

# العولمة والأخلاق

في ضوء رسائل النور  
( البحوث العربية )

ISBN: 975-6438-14-2

Publication: Söz Basım

Year: 2002, İstanbul

## مركزية الأخلاق في منهج الإصلاح عند النورسي

د. المصطفى تاج الدين(\*)

### مقدمة:

من أزمات الوعي العربي أن تنشأ الأفكار إلى الواقع، وتخلد إلى الأرض بطريقة لو أدركها كارل ماركس نفسه لتنبأ بنجاح الفكرة الماركسية في الدول العربية والإسلامية بدلا من التنبؤ بذلك في برمنغهام. ويحاول كثير من المثقفين العضويين (أي المنتمين إلى اتجاه معين) داخل التيار الإسلامي ان يقنعوا الناس بأن الفكر سابق على الواقع وأن الإنسان هو صانع تاريخه وليس العكس، ومع ذلك تبقى أفكارهم رهينة اليومي، وضحية الاهتمام بالجزئيات المتناسلة، في غياب وعي الاستشراف، والنظر المستقبلي المتحلل من أوزار الواقع والمتنبئ بالمآل، ولقد رجعت لنفسى بعد تجربة دامت أكثر من عقد من الزمن في إطار العمل الإسلامي أفكر في مآلات الحركة الإسلامية، وأهدافها البعيدة وحاولت قدر المستطاع أن أتجرد من النسق الكلي للأفكار التي تبينها لمدة غير يسيرة من الزمن. إذ أصبحت مقتنعا بأن التفكير من داخل النسق لا ينتج فكرا مستقبليا لأنه فكر محكوم بالهموم اليومية وردود الأفعال، وتأكدت من خطورة انتماء العلماء إلى الأحزاب والحركات وهي بدعة جديدة جنت على الاجتهاد وجعلته مرهونا لدى المؤسسة أو التنظيم أو الجمهور ولا يغرنك اتمام أبناء الحركات الإسلامية للعلماء بخدمتهم للسلطة، فقد أحيانا الله لنرى أنصاف العلماء ترهنهم جماهيرهم، وتوظفهم لتنظيماتهم، ولا فرق عندي بين خدمة الفكر للسلطة وخدمته للجمهور أو الحزب ما دامت النتيجة واحدة: قتل حرية الفكر ووأد الإبداع. لقد نادى الحركة الإسلامية منذ

(\*) قسم الدراسات العامة، الجامعة الإسلامية العالمية - ماليزيا

نشأتها بضرورة التجديد، ونجحت نجاحاً كبيراً في إعادة الاهتمام بالتأصيل الديني للأفكار والنماذج المعرفية المتبعة، غير أنها لم تنتبه إلى أن المتغير الزمني داخل معادلة الإصلاح ليس متحيزاً، بل هو محايد تماماً وجريان أحكامه على الآخر لا يعني أن في الحركة الإسلامية مناعة خاصة تجعلها بمعزل عن تأثيره، وتفصيل هذه الفكرة ان الحركة الإسلامية اعتبرت نفسها أداة التغيير ووسيلة الإصلاح واعتبرت ما حولها من مجتمع وسلطة وأفراد موضوع التغيير وميدانه، ونسي منظورها تحت وطأة التفكير من داخل النسق أن الحركة نفسها قد تتحول إلى موضوع للتغيير، وان التجديد الذي تنادي به ينبغي أن تنزل مقتضياته على أفكارها ومناهجها ووسائلها. ذلك أن متغير الزمن فاعل في تغيير فعالية الأفكار، والتقليل من قدر التزام الناس بها، ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذه السنة الكونية في قوله عن أول بشر خلقه: « وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَسَىٰ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا » (طه: 115)، وفي قوله عن أهل الكتاب: « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ » (الحديد: 16) وما زال كثير من أبناء الحركة الإسلامية بفعل الضعف الأخلاقي الإيماني لا يتصورون حدوث تغيير اجتماعي يصلح خارج تصوراتهم ومخايلهم التي تداعبها الرومانسية المهدوية، وسمفونية الطائفة المنصورة، ولهذا السبب نجد أن عملية إنتاج الأفكار داخل الحركات الإسلامية عملية بطيئة، والأفكار التي يسمح لها بأن ترى النور محكومة بدكتاتورية النسق، بحيث يصعب أن تجد مجالاً للأفكار الناقدة، والتي من شأنها أن تضخ دماً جديداً في الدم الآسن ليؤدي عمله في دورة الإصلاح وإعادة النظر في المسيرة. والعجيب أن تتحول كل إجابات العمل الإسلامي إلى نصر في أذهان الإسلاميين بضرب سمج من التأويل وهو أن الحنة دليل على صحة الطريق، والابتلاء دليل على سلامة المنهج، وهذا صحيح لو أعقب الحنة فكر جديد، وأطل علينا بعد الابتلاء نسق مختلف، أما وأن حليمة بعد كل نكسة تعود إلى العادة القديمة فإن الحنة حينها تكون عقاباً، والابتلاء جزاء سننيا ينال كل من لم تسعفه حكمة، ولم يحضره عقل لتجنب العاصفة والتجانف عن المخدور. وبفعل التأويل السمج تتحول أمراض الجسد الحركي إلى مشاكل عادية، وتعفنت المؤسسة التنظيمية إلى دليل على ثراء الاختلاف: وصدق المتنبي حين قال:

أعيدها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

وإذا كان المثقف بفعل قدرته على التحليل، وأهليته للاستشراف، هو من يستطيع ان يسمي الأشياء بأسمائها داخل التنظيم، فإن هيمنة السياسي، والحركي على المثقف في توجيه مسيرة المؤسسات تفقد الجمهور القدرة على الاقتناع بما يقول المثقف وتسلم قيادها لقليلي البصر والبصيرة ليوردوها تملكة لا تكون الحركة وحدها ضحيتها، بل الإسلام نفسه بأزمات الحركات قد يوضع — لا قدر الله — موضع التساؤل من جديد. والحقيقة أن هذا الوعي النقدي الذي التزمنا به بعد تجربة متواضعة في ميدان العمل الحركي قد ترسخ لدينا بعد أن اطلعنا على بعض من تصورات علم من أعلام العمل الإسلامي وهو بديع الزمان النورسي.

### 1- العمل الإسلامي وأزمة المعيار

لعل من المعروف أن رحلة النورسي الإصلاحية تنقسم إلى قسمين :

مرحلة النورسي القديم

ومرحلة النورسي الجديد

ولقد طبعت شخصية النورسي في مرحلتها الأولى بطابع ثوري واضح، وانخراط مباشر في العمل السياسي. كان هذا التوجه منسجما مع المزاج الحاد الذي عرف به رحمه الله، فقد كان شديد الغضب<sup>1</sup>، ذا شمم واضح يورده موارد التحدي كلما استشعر ذلا أو أحس بغمز في الكرامة.

والحقيقة أن منهج الإصلاح عند النورسي قد تأثر تأثرا واضحا بالمرحلتين، حيث بدأ مؤمنا بالعمل السياسي وسيلة لإنقاذ الخلافة ومواجهة الاستعمار بكل أشكاله، وانتهى مقتنعا بعدم جدوائية العمل السياسي<sup>2</sup> إذا قورن بالعمل الإصلاحي العام والذي يبدأ من الإيمان بالفكرة في اتجاه إحداث تحول شامل في نمط التفكير عملا بمضمون قوله تعالى :  
"إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم"

و لم يكن النورسي بعيدا عن التأثير والتأثر.بمنهج إصلاحية كتب لها الرواج في العالم العربي والإسلامي، ولعل من السهل جدا العثور على مثل هذا التأثير ليس في كتاباته فحسب بل في منهجه الحركي والإصلاحي بصفة عامة<sup>3</sup>. غير أننا نود أن نستدرك بعضا مما فات الأستاذ الدغامين في مقارنته الناجحة بين النورسي ومحمد عبده. ويرتبط تصورنا هذا بمنطلق نقدي جديد للعمل الإسلامي يدور حول صلة الحركة الإسلامية في بعدها

السياسي بجهود الإصلاح التي قام بها زعماء دينيون أمثال النورسي والأفغاني ومحمد عبده، وجعفر الكتاني وابن باديس وغيرهم.

فمن المعلوم أن مناهج الإصلاح عند هؤلاء، على اختلاف ظروفها وفعاليتها، انتظمها نسق موحد في النظر إلى أسباب تخلف الأمة وسبل النهوض بها، ويمكن تلخيص هذا النسق في شكل ضروريات خمس كما يلي:

ضرورة التجديد ونبذ التقليد

ضرورة الحوار الداخلي بين المسلمين على اختلاف طوائفهم واتجاهاتهم

ضرورة الحوار الخارجي مع "الآخر" دون تخرج من الاستفادة منه

ضرورة إعمال العقل من جديد ونبذ الحرفية النقلية

ضرورة المعرفة في العمل الإصلاحي

غير أننا لاحظنا أن العمل الإسلامي المنظم في ثوبه الذي أعقب جهود الإصلاح تلك، قطع عموماً مع هذا الإرث الإصلاحي الثري، وقلب مركب الإصلاح نحو وجهة جديدة يمكن تلخيص نسقها في ضروريات خمس مقابلة للضروريات السابقة وهي :

ضرورة اتباع السلف وهو ما يفيد خلاف ظاهره، إذ يعني ضرورة التقليد والتمسك

بالقديم

ضرورة التميز والمفاصلة بدل الحوار

ضرورة التمسك بالنص (السنة خصوصاً) بدل التمسك بالكليات العقلية المنصوص

عليها أي مقاصد الشريعة

ضرورة التسييس بدل المعرفة

ضرورة إقامة الدولة بدلاً من ضرورة الإصلاح

لقد مثلت الصحوه الدينية المعاصرة - مع استثناءات معتبرة - تراجعاً واضحاً عن مكتسبات الخطاب الإصلاحي النهضوي، حيث شجعت التقليد، وأوغلت في العمل السياسي اليومي، فأضحت مؤثلاً لاستقطابات حركية لا تنتهي إلا بتفتت يقود إلى آخر، وجماعة تنسل من أخرى. وكانت النتيجة أن ضعف الرصيد الأخلاقي الذي يمثل الرأسمال الرمزي للجماعات الإسلامية حتى أضحت في عمومها لا تختلف عن الأحزاب القائمة بل إنها هي نفسها تحولت إما إلى أحزاب سياسية، أو دعمت أحزاباً قائمة من أجل تيسير عملها داخل مؤسسات الدولة.

غير أن ما يميز المنهج الإصلاحى النورى هو توسطه المشر بين منهج الإصلاح فى ثوبه القديم، ومنهج التغيير فى ثوبه الحركى. فلئن كانت حركة الإصلاح الدينى والاجتماعى لم تؤت ثمارها بسبب غياب البعد التنظيمى، فإن الحركات الإسلامىة منذ حسن البنا رحمه الله قد ضخمت من التنظيم حتى أصبح عائقا أمام الامتداد الأفقى فى المجتمع، وكان سببا فى ظهور المركبات غير الأخلاقىة فى الوسط الإسلامى من تعصب، وتنافر وتنازب بالألقاب. أما المشروع النورى فقد تجاوز سلبيات التصورين على المستوى النظرى - على الأقل- فى محاولة منه الإبقاء على الجاذبية الأخلاقىة للمشروع الإصلاحى، وفى الوقت ذاته تأسيس حركة منظمة لا تذوب فى المجتمع وإن كانت جزءا منه حتى يتسنى للعمل الإصلاحى الانفتاح على المجتمع دون حساسية تنظيمية طائفية من جهة، ومن جهة أخرى حتى يتمكن هذا العمل من الاستمرار عن طريق الحفاظ على رصيده التنظيمى الداخلى.

لقد كان من الواضح أن عملية التغيير والإصلاح الاجتماعى التى قادها دعاة كثيرون منذ عصر النهضة الإسلامىة الحديثة ممثلة فى جهود الأفغانى وعبد، إلى ظاهرة الصحوة الإسلامىة المعاصرة، كانت تعيش ولازالت أزمة فى معايير العمل الحركى، ونقص بالمعيار القياس الذى تقاس به الإحباطات والإنجازات الدعوىة. وعند الفحص فى هذا الموضوع يبدو لنا وبشيء من التلبس أن ثمة معيارين قد تم تطويرهما واعتمادهما من لدن أولئك المنهمكين فى العمل الإسلامى وهما :

المعيار المبدئى أو الإيمانى

المعيار الكمى أو السببى

ولأن لي غرضا خاصا فى بسط الحديث عن المعيار الثانى فسأبدأ فى تناوله شرحا وتفسيرا إلى أن يتضح بالخلف المعيار الأول الذى سنشبعه تفصيلا فى المحاور القادمة. إن الحديث حول إشكال الفعل الإنسانى وصلته بالأسباب المادية حديث قدم قدم المعرفة الإنسانىة، وهو فى مجال التداول الإسلامى قدم قدم السؤال المعرفى والسياسى فى مسألة القضاء والقدر ومشكل الجزء الإلهى ومدى تعلقه بالإرادة الإنسانىة. فلا جديد فى هذا الموضوع ندعيه سوى محاولتنا هذه فى تنزيل التصورات الفكرية على القضايا العملية وخصوصا فى مجال حيوى هو العمل الإسلامى والتغيير الاجتماعى. ويأتى إطلاقنا لصفة الكمى على المعيار السببى ليعيد الحوار حول مشكل السببىة جذعا بين المفكرين المسلمين إذ عليها مدار الأمر فى العمل للإسلام ما دامت الأسباب

مؤثرة في البواعث الإرادية للعمل، وفي النتائج المترتبة عليه. ذلك أننا نعتقد أن البحث في مشكل السببية كان مرتبطا بنشأة البحث الفلسفي والكلامي حول الحدود المعرفية للعقل<sup>4</sup>، وإذ لم تكن قضية العقلانية في مجال التداول الإسلامي بعيدة عن النزعات المادية في التراث الإسلامي؛ فإن مآل فكرة السببية سيعود في نهاية المطاف إلى أحضان الفكر المادي ذي النزوع نحو القياس الكمي لحركة الفعل الإنساني.

ومدار القياس الكمي على فكرة اللزوم المنطقي والوجودي بين الأسباب والنتائج، ويتأسس المفهوم الكمي في عيار الأسباب على مفاهيم منها :

**مفهوم الضرورة ونفي الاحتمال :** أي أن النتائج تصدر عن أسبابها على جهة الضرورة أو الحتم وهو ما يسقطنا في الحتمية الآلية التي هي نوع من الشرك الظاهر لأن نتيجة القول بالضرورة هي الحد من القدرة الإلهية.

**مفهوم اللزوم ونفي التساوق :** ومعناه أن العلاقة بين الأسباب ونتائجها علاقة لزومية بحيث يوقع هذا في الاعتقاد بأن السبب موجود وراء كل نتيجة مع أن الأسباب في مجملها تتليس بالنتائج، وتساوق معها حتى كأنها علل هائية لها والحال أنها أمارات لها فقط ونستطيع في حالات كثيرة أن نغير النتائج مع وجود ما نتوهمه أسبابا لها.

**مفهوم الاطراد ونفي المعجزة:** إن الإيمان الآلي بالسببية يؤدي إلى الاعتقاد في الاطراد لتعليل الظواهر أي أن ما يقع أمام أعيننا ليس منفكا عن أسباب أوجدته وهكذا يصار إلى نفي المعجزات وخصوصا بعد تصرف عهد الرسالة والوحي.

**مفهوم التجرد ونفي الإرادة الحرة (الإرادة الإيجابية - الله - والإرادة التغييرية - الإنسان):** قلنا سابقا إننا نستطيع في حالات كثيرة أن نغير النتائج مع وجود ما نتوهمه أسبابا لها، وهذا ما يفسح المجال من جديد للإحساس بفعالية الإرادة الربانية في تغيير النتائج، وأيضا بفعالية الإرادة التغييرية للإنسان الذي يستطيع ضرب القدر بالقدر والفرار من أحدهما إلى الآخر من أجل مصلحة راجحة أو فائدة مرجوة .

ولقد لاحظنا أن فكرة السببية أو السننية قد هيمنت على العمل الإسلامي فكانت النتيجة أن ذوى البعد الإيماني والأخلاقي وأعطى مجال واسع للتفكير من داخل الأنساق التي يحكمها منطق التعليل الكمي، هكذا فقدت حرارة الإيمان مكانها لتحل محلها التفسيرات الباردة، التي تعلي من شأن الأسباب على حساب قوة الأقدار.

لم يكن موقف النورسي من قضية السببية موقفا فكريا مجردا، بل كان موقفه موقفا إيمانيا أخلاقيا أملاه عليه استشعاره لعظمة الله، وتيقنه بتفاهة ما حوله من الناس والأشياء

فكان تصوره تعبيراً عن تمكن في الإيمان ورسوخ في التواضع يقول: "أيها الغافل الغارق في عبادة الأسباب! اعلم أن الأسباب ليست إلا ستائر أمام تصرف القدرة الإلهية، لأن العزة والعظمة تقتضيان الحجاب، أما الفاعل الحقيقي فهو القدرة الصمدانية، لأن التوحيد والجلال يتطلبان هذا، ويقتضيان الاستقلال"<sup>5</sup>.

## 2- منهج النورسي بين الأخلاق والسياسة :

من الصعب أن نزيل عن المشروع النوري طابعه السياسي، فهو مشروع يتغنى تحرير الإنسان عن طريق إنقاذ الإيمان، ولهذا لوازم معروفة إذ كلما أنقذ إيمان فرد تحول إلى لبنة في البناء المجتمعي المستقبلي، ويلاحظ أن فهم السياسة عند النورسي الجديد لا يخرج عن هذا الإطار. ومن ثم فقد تجاوز الرؤية التقليدية للسياسة بوصفها فن إدارة الصراع من أجل الوصول إلى الحكم. ويشير طه عبد الرحمن إلى هذا المعنى العميق للتحول السياسي حينما رفض الفهم المتعارف عليه لأنه لا يمت للإسلام بصلة كما أن اعتماده يعود بالسلب على الإيمان النظيف "... وعلى حين غرة وردت خاطرة على قلبي أورثت الطمأنينة التامة والقناعة الكاملة وبقطعية تامة. فقد قيل لي: إن تأويل بشارتك وإخبارك منذ مدة برؤية نور - والتي كنت ترتبط بها بعلاقة جادة وتكررها - وتفسيرها وتعبيرها بحقكم بل بحق عالم الإسلام من حيث الإيمان هو: رسائل النور، فهي ضياء، حيث أخذت جل اهتمامك، بل هي نور ومقدمة وبشرى لما كنت تتخيله وتظنه في دائرة واسعة وفي عالم السياسة ولما سيأتي من حالات سعيدة متمسمة بالدين. هذا النور المعجل تصورته تلك السعادة المؤجلة فكنت تبحث عنه لدى باب السياسة."<sup>6</sup>

فرسائل النور إذن هي مقدمة بين يدي البشارة الكبرى وهي المجتمع المؤمن الذي يقوم على أساس الإيمان ليفي بواجب الخلافة ومقتضى الأمانة. ولذلك فليس العمل الإيمانى النورى عملاً فردياً كما هو فى حالة العمل الصوفى، كما أنه ليس عملاً جماعياً لا يراعى الفرد وحاجاته فى التزكية ولكنه عمل إيمانى جماعى ذو أهداف جماعية كلية تتجاوز النصر السياسى البسيط إلى نقل المجتمع من حال التيه إلى الرشاد ومن الضلالة إلى الهداية فالرسائل: " لا تسعى لإصلاح قلب خاص ووجدان معين بل تسعى أيضاً - ويدها إعجاز القرآن - لمداواة القلب العام المجرى، وضمان الأفكار العامة المكلمة بالوسائل المفسدة التي هيئت لها وركمت منذ ألف سنة، وتنشط لمداواة الوجدان العام الذى توجه نحو الفساد نتيجة تحطم الأسس الإسلامية وتياراته وشعائره التي هي المستند

العظيم للجميع ولا سيما عوام المؤمنين. نعم إنها تسعى مداواة تلك الجروح الواسعة الغائرة بأدوية إعجاز القرآن والإيمان.<sup>7</sup>

ويرى النورسي بعين ثاقبة خطورة حصر الاهتمام في العمل السياسي، وهو ما نشاهده الآن في الجسم الحركي من تضخم في التحليلات، وبرود في التفاعل مع حقائق الإيمان. لقد أنتج هذا التلهف على العمل السياسي قلوباً جافة، وضائراً هشة تخاف من أهل السلطة في المغارم، وتخاف على الحظوظ في المغامم، يقول النورسي " نعم إن مسائل السياسة تتعلق - إلى حد ما - بوظيفة العاملين في الشؤون الخارجية وأركان الحرب في الجيش والقادة المسؤولين. أما دفع تلك المسائل إلى رجل عامي ساذج وإثارته بها، وصرفه عما يلزمه من وظائف تجاه شؤون روحه وأمور دينه، بل حتى تجاه شؤونه الشخصية بالذات ولوازم بيته وقريته، ومن ثم جعله بهذا التلهف، والفضول سائب الروح، ثثار العقل، فاقداً لأذواق القلب نحو الحقائق الإيمانية والإسلامية، خائر الشوق إليها.. وكذا إثارته بتلك الاهتمامات التافهة التي تقتل قلوبهم معنىً - بما يشبه هيمته الجو الملائم للإلحاد - ودفعهم إلى استماع الراديو في شؤون سياسية لا تعنيهم في شيء... أقول: إن كل ذلك لضرر بالغ للحياة الاجتماعية الإسلامية بحيث إن الإنسان كلما فكر بنتائجها الوخيمة المترتبة عليها يقشعر من هولها جلده، ويقف شعره! نعم، إن كل إنسان له علاقة بوطنه وقومه وحكومته، ولكن من الخطأ الجسيم جعل منافع الأمة ومصصلحة الوطن والحكومة تابعة لسياسة مؤقتة لبعض الأشخاص انجرافاً لتيارات مؤقتة، بل تصوّرها نفسها.. فضلاً عن أن حصة كل شخص من تلك الروح الوطنية والقومية وما تترتب عليها من وظائف إن كانت واحدة فإن حصته تجاه وظائف قلبه ومهمات روحه وواجباته الشخصية والبيئية والدينية وغيرها عشرون بل مائة حصة"<sup>8</sup>، لاحظ ونلاحظ هنا كيف جعل النورسي العمل السياسي عملاً نخبياً، والتي من المفروض أن تكون قد تلقت من التربية ما يجعلها بمنأى عن الآثار الجانبية للعمل السياسي، أما الجمهور العام فمن الواجب التوجه إليه بالتربية بدل إثارته بأشجان السياسة وقضايا الصراع الأيديولوجي وهذا يعني أن وظيفة العمل السياسي عند النورسي ذات بعد أخلاقي أصيل يترقى بغرائز الناس نحو الفضائل، ويربي نوازعهم نحو طلب الكمال، ولعمري إن هذا التصور على رغم ما قد يوجه إليه من نقد بدعوى مثاليته، تصور يعيد للعمل السياسي معناه ويخرجه من كونه فن اللعب بالممكن إلى فن تخليق الحياة العامة والخاصة في اتجاه

إيجاد مجتمع الذوق العالي والأخلاق النبيلة وإذا تأتى لمجتمع ما أن يصل إلى هذا المستوى فإن السياسة ستصبح فيه مكرمة وجهادا والقعود عنها مغمزة وتخلف.

### 3- أولويات العمل الإصلاحي:

إن العمل التغييرى الإصلاحي يحتاج فى نظر النورسى إلى إعادة النظر فى الأولويات المتعلقة بواقع الدعوة، أى ما الذى ينبغى أن نبدأ فى إصلاحه؟ ولقد وضع النورسى ثلاث مجالات يتصورها موضوعا للتغيير وهى: الحياة والشريعة والإيمان<sup>9</sup>، ويراهن النورسى هنا انطلاقا من مركزية الأخلاق فى مشروعه الإصلاحي على أن المهدي المنتظر نفسه، وهو هنا رمز للعمل الدعوى الصحيح، لو انبرى للإصلاح لاختر أن يبدأ بالإيمان لأنه أولى الأولويات يقول: " فى هذا العصر تيارات قوية ومسيطرّة إلى درجة تستحوذ على كل شىء، وتستولي عليه، وتمتلكه لنفسها، و تسخره لأجلها، فلو أتى ذلك الذى يُنتظر مجيئه حقا فى هذا العصر، فإننى أرى انه يغيّر هدفه، ويجرّد نفسه من الأجواء والأحوال الدائرة فى عالم السياسة، حفاظاً على أعماله من أن تغتصبها تلك التيارات.

ثم إن هناك ثلاث مسائل هي:

الحياة.. الشريعة.. الإيمان

وأن مسألة "الإيمان" هي أهم هذه المسائل الثلاث وأعظمها فى نظر الحقيقة. بيد ان "الحياة" و "الشريعة" تبدوان فى نظر الناس عامة و ضمن متطلبات أوضاع العالم أهم تلك المسائل. ولما كان تغيير أوضاع المسائل الثلاث كلها دفعة واحدة فى الأرض كافة لا يوافق سنة الله الجارية فى البشرية، فإن ذلك الشخص المنتظر لو كان موجوداً فى الوقت الحاضر لآخذ أعظم تلك المسائل و أهمها أساسا له دون المسائل الأخرى، وذلك لئلا تفقد خدمة الإيمان نزاهتها وصفاءها لدى الناس عامة، ولكي يتحقق لدى عقول عوام الناس - الذين يمكن أن يُستغفلوا ببساطة - ان تلك الخدمة ليست أداة لأي مقصد آخر.<sup>10</sup>

من الواضح أن المشروع التغييرى عند النورسى مشروع إيماني بالأساس، يتقصد نفث الإشارات الإلهية فى النفوس حتى تتحلل من أوزار الإخلاق إلى الأرض، غير أن من المهم الإشارة إلى أن الارتكاز على البعد الإيماني لا يعنى أنه تبسيط للمعركة مع الباطل ورد لها إلى البعد الشخصى بل إننا نتصور أن هذا المهيع التغييرى منبثق من حصافة رأي ورهافة حس بسلم الأولويات فى العمل الإسلامى، ذلك أن الاستعدادات العقلية والحركية عند

الإنسان ليست كلاً قابلاً للتجزئ بحيث يتصور أن يرتد المجاهد إلى قاعد أو العكس بناء على ضعف في الاستعداد الذهني في الاختيار، بل إن الأمر في حقيقته اختيار قلبي وعقلي لسلوك مهيع وانتقاء طريق، وفي حالة شيخنا النورسي فإن رجلاً شارك في الحروب، وانتقل من سجن إلى أسر، وبقي ثابتاً على الفكرة مع البلاء ليشير إلى أن اختيار المنهج الإيماني في عملية التغيير اختيار أمله حكمة، واستلزمه نظر نافذ وليس تبسيطاً للمعركة، واختياراً لغير ذات الشوكة كما قد يزعم زاعم.

يتأسس المنهج التغييرى عند النورسي على :

- اقتناع بمركزية الإنسان في العملية التغييرية

- وعي بالمخططات المعادية للإسلام

بحيث استقر نظر النورسي على أن الحصون المهددة في الكيان الإسلامى ليست سوى حصون الإيمان، ومن هناك ينبغي أن ينطلق البناء. يقول : أما الآن فان هناك هجوماً عنيفاً جماعياً منظماً على أركان الإيمان وأساسه، لا تستطيع اغلب تلك الكتب والرسائل التي كانت تخاطب الأفراد وخواص المؤمنين فقط ان تصد التيار الرهيب القوي لهذا الزمان، ولا أن تقاومه.

أما رسائل النور، فلكونها معجزة معنوية للقرآن الكريم فهي تنقذ أسس الإيمان وأركانه، لا بالاستفادة من الإيمان الراسخ الموجود، وإنما بإثبات الإيمان و تحقيقه وحفظه في القلوب وإنقاذه من الشبهات والأوهام بدلائل كثيرة وبراهين ساطعة. حتى حكم كل من ينعم النظر فيها: بأنها أصبحت ضرورية في هذا العصر كضرورة الخبز والدواء<sup>11</sup>.

يلاحظ هنا أن عملية ترسيخ الإيمان الحركي، والذي نميزه عن الإيمان الشخصي بميزة واحدة وهي أنه إيمان ذو بعد تبشيري رسالي يتغى الدفاع عن الحصون المهددة، فهو خطة جماعية يقع فيها الفرد في المركز وبدونه لا تقوم لمشروع النور قائمة، قلت يلاحظ على هذا الإيمان أنه يتأسس على بعدين يريد لهما النورسي أن يكونا وجهاً لعملة ذهبية واحدة :

البعد القلبي الخالص

البعد البرهاني

ينبغي النظر إلى مشروع النورسي الإصلاحى بهذا المنظار الزوجى الذي يشمل الإيمان الراسخ بالعمل، والعقيدة الثابتة بالفكر، فيكون المشروع التغييرى إذن في أساسه مشروعاً إيمانياً وفكرياً متوازناً توازن الحامل لهذا المشروع والذي لا يتصور له نجاح بدون قلب

خفاق وفكر لماح، يقول الشيخ في بيان هذا التوازن: " إن الرسائل ليست كبقية مصنفات العلماء تسير على وفق خطى العقل وأدلتة ونظراته، ولا تتحرك كما هو الشأن لدى الأولياء المتصوفين بمجرد أذواق القلب وكشوفاته.. وإنما تتحرك بخطى اتحاد العقل والقلب معا وامتزاجهما، وتعاون الروح واللطائف الأخرى، فتخلق إلى أوج العلا وتصل إلى مراق لا يصل إليها نظر الفلسفة المهاجمة فضلاً عن أقدامها وخطواتها، فتبين أنوار الحقائق الإيمانية وتوصلها إلى عيوها المطموسة"<sup>12</sup>.

من الواضح أن منهج النورسي في البناء التربوي يختلف نوعاً ما عن الخطاب الإسلامي السائد والذي يعيش انفصاماً نكداً بين العقل والقلب، التربية والفكر، حيث ينظر إلى التربية الروحية للعاملين في حقل الدعوة بصفاتها مجموعة من التوجيهات الإيمانية الخالية من أي بعد فكري يثبت الإيمان في العقول والقلوب ولعل التيار الصوفي في بعده الطرقي والحركي أظهر من يمثل هذا المنهج الأحادي مع استثناءات معتبرة، كما أن منهج النورسي يختلف بوضوح عن التوجيهات الدينية التي تجعل المبدأ الإيماني خاضعاً لتصور كلامي بارد، تحتل فيه المجادلات العقديّة مركز الاهتمام. فالنورسي يرى أن رحلة الإيمان يجب أن تستمر، فهو - صدقاً منه وتواضعاً - لا يدعي أن فكره أو منهجه مبتدأ المرحلة، بل إنه يقيم تصوره على استصحاب الكسب الإيماني الأصلي الذي يمثل رأسمال الأمة، وعلى هذا الكسب المقترح سلفاً يقام الإيمان في صفته النورية القرآنية، ولهذا فالمعركة في نظر النورسي ليست في إقناع الناس بالإيمان بل هي في تثبيت هذا الإيمان وترسيخه. هذا التصور الرصين قاد النورسي إلى الاستفادة من التراث، والتوسل بكل الآليات التراثية أو قل السلفية التي ابتليت كفايتها الإجرائية في خدمة العقيدة وترسيخ الإيمان. فلم يخاصم النورسي تراثه بل استثمره انطلاقاً من منهجه الاستصحابي يقول: " أما رسائل النور، فلكونها معجزة معنوية للقرآن الكريم فهي تنفذ أسس الإيمان وأركانه، لا بالاستفادة من الإيمان الراسخ الموجود، وإنما بإثبات الإيمان و تحقيقه وحفظه في القلوب وإنقاذه من الشبهات والأوهام بدلائل كثيرة وبراهين ساطعة. حتى حكم كل من ينعم النظر فيها: بأنها أصبحت ضرورية في هذا العصر كضرورة الخبز والدواء"<sup>13</sup>.

هذا الشمول في اعتبار العقل والقلب وسيلة ناجعة في الوصول إلى الإيمان التحقيقي وهو مقام يتحول فيه الإيمان إلى ما يشبه الأمور البديهية في البرهان يقول: " هذا النوع من الإيمان التحقيقي، فلا يتوقف في حدود العقل فحسب بل يسرى إلى القلب وإلى

الروح والى السر والى لطائف أخرى فيترسخ فيها رسوخاً قوياً بحيث لا تصل يد الشيطان إليها أبداً. فإيمان أمثال هؤلاء مصون من الزوال بإذن الله. إن إحدى طرق الوصول إلى هذا الإيمان التحقيقي هو بلوغ الحقيقة بالولاية الكاملة بالكشف والشهود، وهذا الطريق إيمان شهودي يخص أخص الخواص. أما الطريق الثاني فهو تصديق الحقائق الإيمانية بعلم اليقين البالغ درجة البدهة والضرورة، وبقوة تبلغ درجة حق اليقين، وذلك بفيض سر من أسرار الوحي الإلهي من جهة الإيمان بالغيب وبطراز برهاني وقرآني يمتزج فيه العقل والقلب معاً<sup>14</sup>.

#### 4- أخلاقية العمل الإسلامي ونفي البعد الشخصي:

من القوانين المتحركة في العمل السياسي مركزية الزعامة، وهي تقابل قانوناً آخر متحكماً في الممارسة العرفانية وهي مركزية المشيخة، المنهج الأول يقوم على استثمار الرأسمال الرمزي للزعيم في عملية الاستقطاب اليومي للجماهير التي يراد بدورها استثمارها في التدافع السياسي، ولا يخفى أن العمل الإسلامي المعاصر دخل بطريقة شعورية في شرنقة هذا القانون، وتحول إلى أحد "ما صدقاته"، بحيث إن الزعامات الإسلامية السياسية التقليدية لا زالت تهيمن على العمل السياسي في الوقت الذي تطالب فيه الأنظمة بضرورة التغيير ومراعاة سنة التداول على السلطة<sup>15</sup>. وفي مجال العمل الصوفي أو العرفاني يحتل الشيخ ذات المرتبة التي يحتلها الزعيم السياسي وربما أكثر مع الخلاف المعترف في طبيعة الدلالات الرمزية التي يمثلها الشيخ الصوفي، والذي تستثمر سلطته الروحية في توسيع قاعدة المريدين. في المجال النوري يلاحظ أن ثمة تركيزاً على البعد الرمزي للأفكار التي تمثلها رسائل النور، مع حرص متواضع ولكنه بناء على الضرورة التربوية في استبعاد الشخص ولو كان النورسي نفسه، هنا يظهر أننا أمام دعوة صريحة للأتباع حتى يدوروا في فلك الفكرة بدل الدوران في فلك الشخص، يقول: "انه لا يمكن قبول حسن الظن المفرط نحوي ومنحي مقاماً وأهمية تفوق حدي ألف درجة، إلا إذا كان باسم رسائل النور وخدمتها، وكونها داعية ودلالة إلى جواهر القرآن الكريم. نعم ليس لي حق قط قبول مثل هذا الظن الحسن باعتباري الشخصي الذي لا أهمية له إطلاقاً"<sup>16</sup>.

لكن كيف يتم لهذا الرجل الأملعي أن يوفق بين واجب التبشير برسائل النور ودعوى التفاخر وتضخم الذات؟ لقد كان التوفيق هنا منبعثاً لا من استراتيجية حركية تحاول

إبعاد التهمة خوفاً من خسران حركي، ولن الجواب كان أخلاقياً في بعده، إيماناً في مصدره، حضارياً في وعيه بطائع الصراع وخصائصه. فلنكي يدار العمل الإسلامي على مركزية أخلاقية لا بد من تحقيق مطلبين:

### نزع الصفة الشخصية عن الذات العاملة:

بمحيث تتحول الذات الداعية إلى أداة في يد الأقدار<sup>17</sup>، تحتهد، وتعمل وتستفرغ الوسع فلا تنسب الإنجاز إلى نفسها بل إلى الألفاظ الإلهية، والتقدير الربانية، وحينها يتحقق بهذا النكران للذات رصيد من الصدق يجعل كل نتائج العمل الإسلامي عملاً قدرياً، لا في النظر إليه من الآخرين بل في تقييمه من قبل الذات التي أنتجت وأخرجته إلى الوجود. هذا الصدق مع الله يفك الإنسان من الارتباط الآلي بالأسباب المادية بل وحتى بسنن التغيير ذاتها والتي تضخمت في أذهان كثير من العاملين للإسلام حتى أضحت لها من دون الله مع أنه خالق هذه السنن ومبدعها وهو القادر إن شاء أن يحولها حيث شاء بقدره ومشيبته. لقد تحولت الذات عند النورسي إلى شخص اعتباري وبعبارة الرسائل إلى شخص معنوي، تحدده الفكرة لا الشخص والمبدأ لا الفرد، فهذا "هذا الزمان، زمان الجماعة، فالأهمية والقيمة تكونان حسب الشخصية المعنوية للجماعة. ولا ينبغي أن تؤخذ بنظر الاعتبار ماهية الفرد المادية الفردية الفانية، ولا سيما شخص ضعيف مثلي الذي لا حول له ولا قوة، فإن منحه أهمية تفوق قيمته ألف درجة وتحميل كاهله ألوف الأبطال وهو الذي لا يتحمل رطلاً واحداً لا شك أنه ينسحق تحت الحمل هذا"<sup>18</sup>. فالذي يتحرك للإسلام في نظر النورسي ليس هو الشخص، وإنما هو شخص اعتباري معنوي تمثله أفكار الرسائل وتصوراتها، يقول: "أما الآن فقد بعث المولى الكريم" رسائل النور" التي هي بحكم شخص معنوي، وبعث طلابها الذين هم - بسر التساند والترابط - بحكم الفرد الفريد، إلى هذا العصر، عصر الجماعة، المحاط بالظروف المعقدة والأوضاع الرهيبة، لأجل القيام بتلك المهمة الجليلة.

وبناء على هذا السر الدقيق فإن جندياً مثلي، لا وظيفة له إلا وظيفة الطليعة لدى مقام المشيرية المثقلة بالمهام الحسيمة"<sup>19</sup>...

### نزع الصفة الشخصية عن موضوع الدعوة:

لا شك أن العمل الإسلامي حين يتصور الواقع المنحرف بصفته موضوعاً للدعوة عبارة عن أشخاص يكيدون للدعوة، ويبحثون عن وسائل إفشالها، فإنه يكون تحت رحمة تصور بسيط لطبيعة المعركة، حيث تصبح صراعاً بين أشخاص يريدون الإصلاح،

وآخرين يجارونه، وهذا ما جعل الخطاب الإسلامي ضعيفا من الناحية الأخلاقية، مليئا بالسب والتفسيق لأشخاص بأعيانهم وخصوصا في مرحلة الفتنة والابتلاء، ولقد أثبت هذا الخطاب فشله وخضع لمسار من التعديل اقترب فيه كثيرا مما توصل إليه النورسي، فمؤسسة الباطل شخص اعتباري أيضا، إنه عبارة عن نسق من العلاقات والرموز الثقافية التي شكلت المنظور الفكري والوجداني لهؤلاء الذين يواجهون رسالة النور " ثم إن رسائل النور تحاول أولاً إقناع نفس مؤلفها ثم تخاطب الآخرين؛ لذا فالدرس الذي اقنع نفس المؤلف الأمارة بالسوء إقناعاً كافياً و تمكن من إزالة وساوسها وشبهاتها إزالة تامة لهو درس قوي بل اشك، وخالص أيضا بحيث يتمكن وحده من أن يصد تيار الضلالة الحاضرة التي اتخذت شخصية معنوية رهيبية - بتشكيلاتها الجماعية المنظمة - بل أن يجاهها و يتغلب عليها"<sup>20</sup>

ولعل المتمعن في مسيرة العمل السياسي الإسلامي يلاحظ أن التربية الحزبية القائمة على مفاهيم الولاء التنظيمي، والطاعة الواجبة للقيادة، والتنفيذ للأوامر هيمنت على الجماعات المعاصرة، وخلق جوًا من الجمود الإيماني والفكري نتج عنه انحسار في المد الإسلامي، وتباطؤ لخطابه عن مسايرة المتغيرات الحالية، ولقد أدى هذا النوع من التربية إلى أمراض أخلاقية تفتت في عضد الحركات وتحوها إلى أتون من الصراعات والتقاطبات التي تفشل وتذهب الريح، ومن الأعراض البارزة لهذا السرطان الأخلاقي أي التحزب فرح كل بائع ببضاعته، ورغبة في قصر الخير على ذاته، وكلهم يتغنى بالتوحيد ونبذ الخلاف وحال لسانه يقول لا تتحدوا إلا على ما أقول " إن أريكم إلا ما أرى" وهذا مرض في سيكولوجيا الأحزاب قديم، ولابن تيمية رضي الله عنه نص نفيس أحفظه له بنصه يشير إلى هذا الواقع إشارة جلية فقد ورد في الرسائل والمسائل أن رجلا سأله عن الأحزاب فقال: " كلهم مؤمنون، فإن كانوا زادوا في ذلك أو نقصوا مثل التحزب لمن دخل في حزبه بالحق أو الباطل أو الإعراض عمن لم يدخل في حزبه بالحق أو الباطل فهذا من التفرق الذي ذمه الله ورسوله"<sup>21</sup>

ولقد حاول النورسي معالجة هذا الوضع، ونستطيع مطمئنين أن نقول إن قوة أفكاره وخطورتها على الباطل أهما مبنية على بعد أخلاقي أصيل، فالرجل ليس طالب حكم، لا ولا ناصر فكرة يجادل من أجل إظهارها، ولكنه مصلح بكل ما في هذه الكلمة من جمال وبراءة، فهو منزه عن كل حظ يعتبر العامل في حقل الإصلاح الاجتماعي، ولا يضيره لهذا أن يجري الله الحق على لسان غيره، ولهذا لم نجد النورسي يذكر جماعة بسوء، بل إنه

يأخذ نفسه بالقسطاس المستقيم فيرجع بعض المحامد إليهم ولولا هذا العمق الأخلاقي في بنائه التربوي، لضاقت نفسه عن ذكرهم بخير، ولتاقت إلى أن تنسب لها مجمل ما اجترح من عمل في سبيل الله، وهنا يكون الإصلاح النوري إصلاحا شاملا تطلبه الأمة ولا ترفع شعاره جماعة بذاتها، إذ كلما تحيز المشروع الإصلاحية في إطار محدد، فقد امتداده وجاذبيته لما يورثه في نفوس الحاملين له من التعصب والتحيز، ولما يدخله في قلوب المناوئين له من العداوة والترصب فيضيع المشروع وتنتهي فعاليته.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

### الهوامش

- 1 محمد زاهد الملازكردي، *عجالة مقتطفة من أقلام أفاضل العلماء والدكاترة في حياة الإمام الجليل بديع الزمان سعيد النورسي*. (د، ط، ت) دار الأفاق الجديدة، بيروت، ص 50
- 2 نتعامل هنا مع السياسة بمفهومها الممارس والواقعي وهو ما تنكر له النورسي وابتعد عنه، أما السياسة في بعدها النبيل والشرعي والتي تعني سياسة أمور الناس بما يجلب مصلحة ويرد مفسدة فلا إخال أن في كتابات النورسي ما يشير إلى الغض منها، بل يمكننا مطمئنين أن ندرج المشروع النوري في إطار العمل السياسي بالمفهوم الحضاري للكلمة والذي ينطلق بلا تكتيك أو حسابات من تغيير النفس ونمط التفكير في اتجاه إحداث انقلاب حضاري سلمي في المجتمع.
- 3 لقد أبرز الدكتور خليل زياد الدغامين موقفا جهات الالتقاء والاختلاف بين النورسي ومحمد عبده، راجع : *إعجاز القرآن وأبعاده الحضارية في فكر النورسي* ، ط 1، دار النيل، أزير، 1998
- 4 لقد شاع في الفكر الإسلامي المفهوم التجريدي للعقل، حيث نظر إليه باعتباره جوهرًا أو ذات يحدث بها العقل كأبي عضو آخر في تكوين الإنسان، وهذا هو المفهوم اليوناني للعقل. بيد أننا لا نريد أن نعمم هذا الحكم إذ ارتفعت أصوات قوية في التراث نادت بضرورة إعادة هذا المصطلح الفعال إلى مجال التداول الإسلامي الأصيل والذي شكله القرآن الكريم، ومعهود العرب في الخطاب، ومن هذه الأصوات شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم حيث لاحظنا أن العقل ليس جوهرًا ثابتًا وليس ذاتًا يحل بها الإدراك، بل العقل فعل من الأفعال وعرض من الأعراض غير المتحيزة، وهذا يؤدي حتمًا إلى تشوير النظر في مفهوم العقلانية، فعلى أساس التعريف القرآني فإنه يجوز لنا أن نتحدث عن أصناف متعددة من العقلانيات (المنهج) ونماذج متعددة من المعقولات (المعرفة) ولقد بسط القول في هذا أسناننا الجليل الدكتور طه عبد الرحمن ولمن أراد التزديد فعليته بالرجوع إلى : طه عبد الرحمن : *العمل الديني وتجديد العقل*، ط 2، المركز الثقافي العربي، 1997، بيروت، لبنان والدار البيضاء، المغرب، ص 17-21
- تجديد المنهج في تقويم التراث*، ط 2، المركز الثقافي العربي، (د، ت) بيروت والدار البيضاء، ص 357-358
- سؤال الأخلاق، مساهمة في النقد الأخلاقي للحدائث الغربية*، ط 1، 2000، بيروت والدار البيضاء، ص 62-63
- 5 النورسي، *الكلمات*، ترجمة إحسان قاسم الصالحي ص 326
- 6 النورسي، *ملحق قسطنطيني*، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، ص 117
- 7 نفسه، ص 118

- 8 ملحق قسطنوني 119-120  
9 نفسه، ص 136  
10 ملحق قسطنوني، ص 136  
11 ملحق قسطنوني، ص 105  
12 نفسه، ص: 105  
13 ملحق قسطنوني، ص 105  
14 نفسه، ص 111  
15 يمكن هنا استثناء بعض التجارب الإسلامية التي حاولت التقليل من البعد الشخصي في العمل الحركي لكن خطابها العام بقي خطاباً تحكمه الموازنات السياسية بدل المبدئية الأخلاقية.  
16 ملحق قسطنوني، ص 108  
17 يشار هنا إلى القاعدة الذهبية للنورسي في القدر : من آمن بالقدر سلم من الكدر  
18 قسطنوني، ص 100 وراجع في هذا أيضاً : قسطنوني، ص 108، وأيضاً محاورته الجميلة مع أخيه عبد الله حول المشيخة الصوفية قسطنوني، ص 133-134  
19 قسطنوني، ص 101 ولعل من أدل كلمات النورسي على هذا قوله لأحد طلاب النور : " يا سعيد! كن سعيداً، في نكران تام للذات، وترك كلي للأناية، وتواضع مطلق، كالتراب. لنلا تعكر صفو رسائل النور وتقلل من تأثيرها في النفوس. قسطنوني، ص 110  
20 نفسه 105  
21 هذا النص موجود في الرسائل والمسائل، وهو كتاب قضت صوارف الاعترا ب ألا نعثر عليه، فعسانا أن نفعل فيما يستقبل من أيام.